عنوان الملتقى:

الحدث التاريخي ودوروه في تشكل آراء الكلامية

تاريخ الملتقى: 14 نوفمبر 2023م

عنوان البحث:

مسارات الجبر والاختيار في السؤال الكلامي
-من الاحداثيات التاريخية إلى الاستشرافات التربوية-
The paths of obligatory and optional in the verbal question - from historical -coordinates to Educational Orientalism

الجهة المنظمة:

كلية أصول الدين-جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-

الاسم واللقب: فاطمة سوالمي

الرتبة: أستاذ محاضر أ

مؤسسة الانتماء: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة

كلية أصول الدين

قسم العقيدة ومقارنة الأديان

البريد الالكتروني: soualmifatima@gmail.com

الملخص:

تعد مسألة الجبر والاختيار من أهم المواضيع العقدية التي تأرجحت فيها فهوم الناس بين التسليم والإنكار فضلا عن مساجلات المتكلمين. وقد هدفت هذه المداخلة إلى تناول مسألة الجبر والاختيار من زاوية مغايرة يتم فيها استثمار تلك المساجلات- التي انتجت لنا مسارات ثلاث: هي المسار الاعتزالي والمسار الجبري والمسار الأشعري- في بناء إنسان وفق منهج متكامل يوازن بين مفهوم الحرية الإنسانية والارادة الإلهية، يمكن من صياغة شخصية إسلامية متوازنة و مسؤولة و قادرة على التعاطي مع مختلف تحديات الحياة.

Abstract:

The issue of obligation and choice is one of the most important doctrinal issues that has been the subject of debates between people's understanding and denial, as well as the debates of the speakers. This talk aims to address the issue of obligation and choice from a different angle, utilising these debates that produced three paths: Al-I'tazali, Al-Jabr and Ash'ari, in building a human being according to an integrated approach that balances the concept of human freedom and divine will, enabling the formulation of a balanced and responsible Islamic personality capable of dealing with the various challenges of life.

أولا: الاحداثيات التاريخية لمسارات الجبر والاختيار

مسألة الجبر والاختيار عرفت في ثراتنا الفكري بأسماء مختلفة منها: حرية الإرادة، القضاء والقدر، أفعال العباد، الجبر والاختيار، الاستطاعة. ولقد اختلفت فيها الفلسفات وتباينت الآراء بسبب تعدد جوانبها واختلاف مجالات البحث فيها، فوجدت ضمن مباحث العقيدة وعلم الكلام والفلسفة وعلم النفس وعلم الأخلاق.

وتعد مسألة الجبر والاختيار من القضايا ذات الارتباط الوثيق بالسلوك الإنساني الذي يعتبر ركنا أساسيا في التعرف على الفعل التربوي وتفسيره، كما يعتبر شرطا لتحقق المسؤولية الدينية والأخلاقية وحتى

الجنائية إذ أن «القصد الجنائي هو إرادة الفعل المكون للجريمة، وإرادة نتيجته التي يتمثل فيها الاعتداء على الحق الذي يحميه القانون، وإرادة كل واقعة تحدد دلالة الفعل الإجرامية، وتعد جزءا من ماديات الجريمة تلك هي فكرة القصد الجنائي كما يحددها القائلون بنظرية الإرادة».[1]

وفي هذه الورقة البحثية رأينا أن نعرض لهذه القضية ضمن مسار خاص يختلف في منطلقه ووجهته ومقصده عن مسار الممارسة الكلامية لتوظيفه في بناء شخصية متوازنة متماسكة ومتكاملة.

وقد ارتبط البحث في هذه المشكلة ببعض آيات الذكر الحكيم، فتوجد آيات توحي بالجبر مثل قوله

"وَمَا تَشَاۤءُونَ إِلَّاۤ أَن يَشَاۤءَٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" الإنسان:30

"وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ "الصافات:96

"وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاۤءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ "القصص:68

"وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّ فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّاۤ أَن يَشَاۤءَٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰۤ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا"الكهف:23-24

"فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاۤءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" الأنفال:17

وتوجد آيات أخرى توحي بالاختيار منها قوله تعالى:**"وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاۤءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاۤءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّاۤ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَاۤءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا"الكهف: 29**

"وَمَن يَعْمَلْ سُوۤءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا"النساء "النساء: 110-111

وترتب على ذلك ظهور فرق شتى توزعت بين ثلاثة اتجاهات:

---

[1]- نجيب حسني: النظرية العامة للقصد الجنائي- دراسة تأصيلية مقارنة للركن المعنوي في الجرائم العمدية- ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1988م، ص 32.

الرأي القائل بالجبر: يقضي بسلب الإنسان الإرادة والقدرة على الفعل وإنما هو مجبور في أفعاله ولا يملك حرية الاختيار، وأن ما يقوم بهمن أفعال هي على سبيل المجاز، فالفاعل الحقيقي هو اللهالذي«يخلق الأفعال في الإنسان على حسب ما يخلق في سائر الجمادات. وينسب الله الأفعال إلى الإنسان مجازا كما هو الشأن في الجمادات حين يقال: أثمرت الشجرة وجرى الماء وطلعت الشمس وغربت وغيمت السماء وأمطرت وازدهرت الأرض وأنبتت إلى غير ذلك»[2].

وبسبب غلوّهم في نفي قدرة الإنسان على الاختيار تعرضوا لانتقاد شديد، إذ كيف يعاقب الله الخلق على أمر مقدر عليهم ولم يفعلوه بمحض إرادتهم ، والله منزه عن هذا متصفا بالعدل وبكل صفات الكمال المطلق.يقول ابن حزم:«قالوا –المعتزلة – وجدنا من فعل الجور في الشاهد كان جائرا، ومن فعل الظلم فهو ظالم، ومن أعان فاعلا على فعله ثم عاقبه عليه كان جائرا عابثا، والعدل من صفات الله، والظلم والجور منفيان عنه» **"مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيد"فصلت: 46 "**

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"النحل:118

ولم يقف تصورهم لنفي الفعل الإنساني عند هذا فحسب بل سمحوا بهذا التصور إلى نفي حتى الرغبة أو السعي عن الإنسان لأن عمله ينسب إليه مجازا لا حقيقة كالجمادات، يقول جمال الدين الأفغاني «كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك يقفقفه البرد عند شدته ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة وقد انقرض هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة، ولم يبق لهم أثر».

الرأي القائل بحرية الفعل الإنساني: وهم المعتزلة ظهروافي مقابل الاتجاه القائل بالجبرية، وقد أبدواهتماما كبيرا بالإنسان وبحريته استنادا إلى أحد أصولهم الخمسة الذي اشتهروا به وهو العدل، الذي

---

[2]– أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، دراسات في الفلسفة الإسلامية، ط1، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1957 م، ص 74.

يقتضي أن يكون الإنسان حرافي أفعاله لتتحقق عدالة التكليف وتتحدد المسؤولية والجزاء، كما أثبتوا للإنسان القدرة على خلق الأفعال خيرها وشرها، وقالوا بأنه لامعنى للشرائع والأديان في انعدام حرية الإنسان [3].

وتعتقد المعتزلة أن الله سبحانه وتعالى «علم وقدر كل شيء أزلا ولكن أفعال نفسه هي التي يريدها ويوجدها على وفق العلم الأزلي وكلها خير فهو لا يخلق للشر بحال. أما أفعال الإنسان فلا يريد الله أن توجد أو لا توجد ولا يخلق شيئا منها بقدرته سواء في ذلك خيرها وشرها. بل إنه فوض الأمر فيها للإنسان يفعل ويترك ما يشاء بقدرته المستقلة. وإن كان الله يعلم طبعا أزلا ما سيكون منه ومجازيه عدلا – لما منحه من حرية –عليه»[4].

الرأي القائل بالتوسط: وهم الأشاعرة الذين توسطوا الموقف بين الجبرية المغالين في نفي الإرادة والحرية عن الإنسان الذي تحول في نظرهم إلى ريشة في مهب الريح لاحول له ولا قوة، وبين المعتزلة الذين بالغوا في إثبات الحرية الإنسانية بأن جعلوا الإنسان خالقا أفعاله. فرفضوا القول بالجبر المطلق لأن ذلك يتنافى مع العدالة الإلهية ومع التكليف والجزاء كما رفضوا قول المعتزلة لأن ذلك يؤدي إلى القول بوجود خالقين إثنين وهذا شرك بدليل قوله تعالى: **"ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا" الفرقان: 2"**

"ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ" الأنعام: 102

وقد ربط الأشاعرة مسألة الحرية الإنسانية بالإرادة الإلهية المطلقةالمهيمنة على كل شيء، فالله هو الخالق لكل الموجودات بما فيها الإنسان، فهو سبحانه وتعالى الخالق لأفعاله وإرادته وقدرته وما يفعله الإنسان فهو من قبيل الكسب الذي يعترف بحرية الإرادة الإنسانية، إذ أن سعادة الإنسان متوقف على خياراته في هذه الحياةوهو الإحساس الذي يجده في نفسه، ويؤكد في ذات الوقتعلى القول بالمشيئة الإلهية

---

[3]–القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم العثمان، ط2، مكتبة وهبة، القاهرة، 1988م، ص323-390.

[4]– محمد يوسف موسى: القرآن والفلسفة، دط، دار المعارف، مصر، 1958م، ص 116-117.

المطلقة.[5]

ثانيا: الاستشرفات التربوية:

1-الممارسة التربوية بين الحرية والقهر:

إن أي تغيير يسعى لتنمية قدرات الإنسان وامكانياته واستعداداته ينبغي أن يسبقه قصد وإرادة وتخطيط لإحداث عملية التغيير، وكثير من الآيات تؤكد على هذا الدور الذي أسند للإنسان يقول تعالى:"**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**ۗ"الرعد: 11

ولكن كيف يتناسب هذا مع فكرة الجبر وإسقاط التدبير والاستسلام المطلق لإرادة العلي القدير؟ ولقد أثارت فكرة الجبر العديد من الانتقادات، تمحورت جلها حول مصير العملية التربوية في ضل فكر ينطوي على مضامين إقصائية لدور الإنسان في الحياة وقدرته على إحداث فعل التغيير والمواجهة.

إن مسألة ارتباط الفعل التربوي بمسارات الجبر والاختيار يعبر عن مسائلات معرفية ترتبط بسؤال الحرية مفهوما وممارسة من حيث قيمة الحرية في المواقف التربوية كاستشرفات مساوقة لجدل الجبر والاختيار في تراثنا الكلامي.

2- تعزيز العلاقة القائمة بين العلم والحرية:

إن الدلالات التربوية لجدل الجبر والاختيار في السؤال الكلامي يسمح لنا باستثمار نتائجه نحو بوصلة العملية ضمن الأفق الابستمولوجي ليتم التركيز داخلها على سؤال العلم وعلاقته بجدلية

---

[5]-أنظر عضد الدين لإيجي: المواقف، دط، دد، القاهرة، 1986م، ص31.

- الأشعري: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، تحقيق عبد العزيز السروان، ط1، دد، 1985م، ص69 وما بعدها.

- مقالات الإسلاميين، مرجع سابق، ج 2، ص221. -

-القاضي أبو بكر الباقلاني: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق محمد زاهر الكوثري، ط2، المكتبة الأزهرية، القاهرة، دت، ص46.

الفطري والمكتسب عند الإنسان، الذي يعد مجبرا فيما لا يعلم ومخيرا فيما يعلم، ذلك أن الإنسان يشعر أنه حر عند ممارسته لإرادته في اختيار ما هو متاح له، وهذا يعني تعزيز العلاقة القائمة بين العلم والحرية في العملية التربوية ضمن أفق الاستشراف.

3- المفاهيم التربوية وعلاقتها بمسألة الإنسانية:

ترتبط المفاهيم التربوية المتزنة بالنضج العقلي والإنساني المسؤول عن اتخاذ قرارات وقناعات تتجاوز منطق التكييف فحسب بل يتعدى ذلك إلى استخراج سبل الهداية من صميم تقييمه لأفعاله، وهذا ما يستوجب ممارسة العملية النقدية لطبيعة الفعل الإنساني ومآلاته الأخلاقية والعقدية والاجتماعية.

إن القول بالجبرية التي تؤكد على أن قدرة الله قدرة مطلقة في العالمين السماوي والأرضي وهو مقتضى الإيمان بالقضاء والقدر ليس موقفا سالبا لإرادة الإنسان ولا يقصد به ترك اتخاذ الأسباب والركون بلا فائدة ، بقدر ما هو ثبات للإيمان وتحقيق لمعنى الإسلام وتأكيد على ذات الإنسان وحضوره الفعال، فكيف يكون الإنسان فاقدا لحرية الإرادة والاختيار، وهو يعلم أنه المخلوق المكرّم بالعقل والموجود الوحيد الذي اختير لأداء مهمة الخلافة على هذه الأرض بسب امتلاكه للقدرة على الاختيار بين الخير والشر.

والقول بإسقاط الإرادة والاختيار يكسب الإنسان مناعة نفسية تقيه من الخوف والقلق والشكوك والأوهام لأن التفكير فيما تؤول إليه الأمور مستقبلا هو مما قدره الله لعباده، فكل ما يحدث في الكون هو بقضاء الله وقدرته وانشغال العبد بهذه القضايا يدخل العقل في متاهات تفقده الإحساس بالأمن والطمأنينة وتعيقه عن السعي في الحياة والقيام بأمور الدنيا وفق ما أمر الله أي استقامة الإنسان على نهج الإسلام لقوله- صلى الله عليه وسلم-**"قل آمنت بالله ثم استقم"**

كما أن الذات على الاعتقاد الجازم بأن الله هو المتصرف في هذا الكون وهو الفاعل الحقيقي لكل ما يحدث في الكون، يثمر في النفس الرضا والتسليم والاطمئنان بأن كل آماله وتطلعاته هي بين يدي عليم قدير.

تعد الحرية من العناصر الضرورية لكل بناء تربوي ومتى توفرت للإنسان القدرة على الاختيار فقد تحققت مسؤوليته امام الله، وأمام المجتمع، والحرية عند المعتزلة هي اختيار مسؤول ومحدد بالالتزام بأوامر الشرع

وليست اختيار مطلق يبيح لصاحبه أن يعتنق ما يشاء من المذاهب والأفكار وحينئذ تتفشى الفوضى، ويفسد النظام، وتعم الهمجية، وتنتشر العبثية. وبالجمع بين الأمرين تستكمل النفس آدابها لترتقي في أعلى المقامات الوجودية وهو مقام العبودية التي في ظلها تتحقق أسمى معاني الحرية الإنسانية المنبثقة عن المرجعية الإسلامية والمستلزمة لنجاعة العملية التربوية في آداءاتها السلوكية المتوازنة.

وختاما نقول إن العملية التربوية يجب أن تقوم على ركيزتين متوازنتين يكون الفعل الإنساني متزنا بعيدا عن قصور الجبرية وتمييع الاختيار.